1

في فهم التهديد الإرهابي

بعد فترة قصيرة من الرعب الذي حلَّ بأميركا في 11 أيلول 2001، دُعِيتُ إلى تناول الغداء مع أحد زعماء الكونغرس البارزين. كان الهدف من وراء ذلك أن نناقش طبيعة التهديد الذي تواجهه أمتنا وأن نستكشف عواقب ما اعترى علاقات أميركا بالشرق الأوسط. وكان مضيفي شخصاً ثاقب الفكر، رصيناً، ممّن يمعنون النظر ويتحرّون الأمور، لكن مزاجه كان يتلخّص بشيء قاله مع بداية لقائنا: "نحن أمّة قوية، لكن هذا النمط من الإرهاب يمكن أن يغلبنا". غير أنّه لم تنقضِ أسابيع على الإطاحة بنظام طالبان في أفغانستان، حتى انقلب مزاج الكونغرس ذلك الانقلاب اللافت، على نحوٍ عكس بصورة صادقة تلك الرحلة الانفعالية التي قطعتها أميركا.

والحقّ أنّ التحول الذي اعترى مزاج أميركا في الأشهر التي تلت ذلك اليوم الرهيب من أيلول هو من ذلك النوع الباهر من حيث مداه وغير المسبوق من حيث سرعته. فالرحلة لم تستغرق سوى بضعة شهور من الإحساس بالهشاشة الذي لم يشهد التاريخ

الحديث مثيلاً له في قوته إلى الثقة بالنفس التي لا تعرف الذاكرة مثيلاً لها في شدّتها ما إنْ جاء ذلك النجاح اليسير في الإطاحة بنظام طالبان في أفغانستان.

ولقد كانت هذه الرحلة السريعة على واحدٍ من المستويات رحلةً شافيةً بالنسبة لأمّةٍ كانت ثقتها بنفسها قد اهتزّت ذلك الاهتزاز الموجع. غير أنها كانت على مستوى آخر رحلة مزعجة ومكدِّرة. فلا شكّ أن أميركا كانت قد اختبرت في الماضي كثيراً من التأرجحات الجذرية في سياستها الخارجية. غير أنّ هذه التأرجحات كانت تستغرق ما يقارب الجيل، منذ النزعة الانعزالية التي تلت الحرب العالمية الأولى - وبلغت حدّها الأقصى الكارثي الذي شهدناه في بيرل هاربر - إلى النزعة التدخّلية التالية التي انتهت بمستنقع فيتنام. فنادراً ما جرت مثل هذه التحولات القصوى في المزاج بالسرعة التي جرت بها في خريف العام 2001، ولعلّها نادراً ما ترتّبت عليها العواقب التي ترتّبت على هذه الأخيرة.

غير أنّ ما من تطرّفٍ يمكن أن يجدَ في الواقع ما يبرّره. فالولايات المتحدة هي الأمة الأقوى في عالم اليوم، لكنها ليست من القوة بما يكفي لأن تواجه التحديات العالمية الجديدة وحدها أو لأن تبرّر الثقة الزائدة التي تلت الإطاحة بنظام طالبان في أفغانستان. ويمكن أن نفسّر جزئياً سرعة مثل هذه التحولات في المزاج بغياب قوة عظمى منافسة وبالسرعة التي تسم عالم اليوم بوجه عام. فالثورة المعلوماتية حملت الرعب إلى كلّ بيت في أرجاء

الأرض خلال ساعات. والثورة التكنولوجية مكّنت من تحقيق نجاح عسكري لافت على بعد آلاف الأميال من سواحل الولايات المتحدة وبحدٍّ أدنى من الإصابات في صفوف الأميركيين.

غير أن العوامل ذاتها التي أدّت إلى تعزيز نزعةٍ أحادية الجانب في السياسة الخارجية الأميركية عملت أيضاً على زيادة الاهتمام العالمي بدور أميركا في العالم. فقد شهدنا تحولاً دراماتيكياً مماثلاً في المزاج العالمي من التعاطف مع ألم أميركا والإحساس بالهشاشة العالمية بعد الهجمات على الولايات المتحدة مباشرة في أيلول 2001 إلى اتّساع الفجوة بين أميركا وسواها من الدول، حيث تنامى السخط على القوة الأميركية في كثير من أرجاء العالم، بما فيه الشرق الأوسط من غير ريب.

ويمكن لنا أن نتفهّم لماذا انصبَّ قَدْرٌ كبير من التركيز الأميركي على مواقف الشرق الأوسط والبلدان الإسلامية، خاصةً ما يتعلّق بالسؤال الذي طرحه كثير من الأميركيين بصورةٍ غريزية: "لماذا يكرهوننا إلى هذا الحدّ؟" لكننا قبل أن نطرح هذا السؤال، وسواء كانوا يكرهوننا إلى هذا الحدّ، أم لا، علينا أن نضع الشرق الأوسط ضمن منظور عالمي. فعلى الرغم من وجود بعض الأوجه الفريدة في النظرة الشرق أوسطية إلى الولايات المتحدة، إلا أنه من المهمّ أيضاً أن نفهم أنَّ قدراً كبيراً من ردّة فعل العرب والمسلمين على الحرب التي شنّتها أميركا على الإرهاب،

وعلى السياسة الخارجية الأميركية بوجه أعمّ، لا يختلف كثيراً عن ردّة فعل البشر في مناطق العالم الأخرى.

فليس يفيد أن نزعم أنّ ردّة الفعل العالمية على مزاج أميركا في حربها المعلنة على الإرهاب لا تعدو أن تكون أنيناً أو انتحاباً. بل إنّ الأخطر من ذلك أن نزعم أنّ العاطفة العالمية لا عواقب لها في ضوء الموارد القوية التي تحوزها أميركا. فبصرف النظر عن تحريض الدول الأخرى المتزايد لأن تلتئم وتتحد كيما تتحدى قوة أميركا إذا ما نُظِرَ إلى هذه الأخيرة على أنّها تتّخذ مساراً يتميّز بأحادية الجانب، فإنّ طبيعة التهديد الذي أبرزه رعب 9/11 ليست تلك الطبيعة التي يمكن التعامل معها من خلال القوة القاهرة وحدها. وهذه القضية هي في القلب من صراع وجهات النظر بين الولايات المتحدة وكثير من الدول الأخرى على تعريف التهديد الإرهابي الذي يواجهه العالم اليوم. وحقيقة الأمر أن تطور درجة التعاطف مع الولايات المتحدة في الأشهر التي تلت أيلول 2001 كان تابعاً إلى حدٍّ بعيد لتطوّر وجهة النظر الأميركية حيال الحرب على الإرهاب.

وجهات النظر المتضاربة حول الإرهاب

ثمة تباينات خمسة مهمّة بين وجهات النظر التي طرحتها الولايات المتحدة وتلك التي طرحها كثيرون في أرجاء واسعة من

العالم. وسوف أعمد في بقية هذا الفصل إلى إلقاء الضوء على هذه التباينات الأساسية التي تفسّر الصراع بين الولايات المتحدة وسواها حول أنجع الوسائل في التعامل مع التهديدات الإرهابية.

1. تعاطف الكثيرون في العالم مع ألم أميركا وساندوا حقّها في الدفاع عن نفسها في ضوء الهجمات الرهيبة لكنهم لم يروا إلى ذلك الحقّ على أنه يخوّل أميركا أن تعرّف الإرهاب العالمي على نحو أحادي الجانب أبعد من التهديد المباشر لأراضيها.

2. ركّزت الولايات المتحدة جهودها في مقارعة الإرهاب على التصدي لجانب "العَرْض" في هذا الإرهاب دون تصدٍّ مماثل لجانب "الطلب"، الذي يرى كثيرون في العالم أنّه جانب حاسم.

3. عرّفت إدارة بوش الإرهاب كما لو أنه ضرب من الإيديولوجيا، أو الحلف السياسي، وذلك في الوقت الذي يفهم كثيرون في أرجاء العالم هذا الإرهاب على أنّه وسيلة غير أخلاقية تستخدمها جماعات متنوّعة لغايات مختلفة.

4. ترى الولايات المتحدة أنّ التهديد الإرهابي الأساسي يكمن في "الدول الإرهابية"، ويتكلم بعض المسؤولين الأميركيين كما لو أنَّ مواجهة تلك الدول يمكن أن

تؤدي إلى دحر ظاهرة الإرهاب. أما معظم العالم فيرى إلى الإرهاب على أنه مضاد للدولة، وعلى أنّه ظاهرة يتزايد تهديدها ولو جزئياً بسبب ما يشهده عصر العولمة من إضعاف للدولة.

5. عمد الخطاب العام في أميركا إلى ربط الإرهاب في الشرق الأوسط، خاصةً العمليات الانتحارية، بأوجه من الدين الإسلامي، على الرغم من أن الرئيس بوش كان حريصاً على نبذ هذه الفكرة، أما الكثيرون في هذا العالم فيرون إلى كلٍّ من بواعث الإرهاب الشرق أوسطي ووسائله على أنها أمور لا تتعلق بالإسلام بقدر ما تتعلق بالسياسة.

1. المهمتان المنفصلتان:

في الأسابيع التي تلت أحداث 9/11، عمّت المجتمع الدولي تعبيرات التعاطف مع الولايات المتحدة، بما في ذلك الشرق الأوسط. بل إن بلداناً تربطها بالولايات المتحدة علاقات متوترة أو حتى علاقاتُ مواجهةٍ، مثل إيران، التي لا تزال على قائمة "الدول الإرهابية "التي وضعتها وزارة الخارجية الأميركية، عبّرت عن تعاطف غير معتاد مع ألم أميركا. فقد أدان الرئيس الإيراني محمد خاتمي مباشرةً تلك "الهجمات الإرهابية" وعبّر عن "حزنه وتعاطفه

العميقين" تجاه الضحايا. أما الرئيس السوري الشاب بشار الأسد فقد وجّه إلى الرئيس بوش رسالة عزاء تدين الهجمات الإرهابية بشدّة. وبوجه عام، فقد أدرك معظم الزعماء والحكومات أنّ للولايات المتحدة الحقّ في أن تردّ على الإرهاب فوق أراضيها ما إنْ يتمّ تحديد المذنبين. غير أنّ من المهمّ أن نفهم مصادر هذا الدعم العالمي الباكر لأميركا ولماذا راح كثير من هذا الدعم يتحول إلى ضرب من الاستياء حين عمدت الولايات المتحدة إلى تعريف حربها العالمية على الإرهاب وشنّها هذه الحرب.

لا شكّ أنَّ قدراً كبيراً من ردة الفعل المتعاطفة كان أصيلاً وصادقاً، على الرغم من أنَّ بعضهم كان يخفي ذلك الإحساس الخبيث بالرضى لأنَّ أميركا كانت تذوق الآن ما عاناه كثيرون في أرجاء العالم لزمن طويل. ولقد فرض حجم المأساة الإنسانية بصورة لا مفرّ منها أن يُبَثَّ ذلك الرعب بثّاً يكاد أن يكون حيّاً على شاشات التلفزيون في كثير من أرجاء العالم. لكن ردة الفعل لم تكن مجرّد شعور إنساني طيّب. فهشاشة أميركا تعني من بعض النواحي هشاشة العالم. وإذا ما كان لمثل هذا الرعب أن يحلّ بالقوة العظمى الوحيدة الباقية، فذلك يعني أنّه لم يبقَ أحد حصيناً. وإذا ما كانت مرساة النظام الدولي قد اهتزت، فلا بدّ أن يهتز النظام العالمي برمّته. وحتى في الشرق الأوسط، حيث يستاء كثيرون أصلاً من أميركا بل ويسرّهم ألمها في بعض الأحيان، خرجت أصوات أخرى رأت في تهديد الولايات المتحدة تهديداً لهم

أيضاً، ليس لأنهم يرون في أميركا مرساةً للنظام العالمي وحسب بل أيضاً لأنها تمثّل حلماً يطمح إليه كثيرون. وعلى الرغم من تواصل النقد الموجَّه إلى السياسة الأميركية على صفحات الصحف في الشرق الأوسط، إلاّ أنَّ صحفياً في صحيفة "الحياة" اليومية النافذة عبّر عن مشاعره في يوم 19 أيلول 2001 على هذا النحو: "دمار أميركا هو دمار الحلم الإنساني في أرجاء العالم". وفي الشرق الأوسط، كما في كثير من أنحاء العالم، كان هنالك، ولو للحظة على الأقل، ذلك الإحساس واسع الانتشار الذي عبّرت عنه إحدى النساء الفرنسيات تعبيراً بليغاً بقولها: "اليوم، نحن جميعاً أميركيون".

وكان واضحاً، علاوةً على كلّ هذا، أنّ معظم حكومات العالم تدرك حقّ أميركا في الردّ بقوة. فما من دولة يمكن أن تسمح لهجوم بهذا الحجم أن يبقى دون ردٍّ، فما بالك إذا كانت هذه الدولة قوة عظمى. ولا يمكن لأحد أن ينكر على أميركا حقّها الجوهري في الدفاع عن نفسها، بصرف النظر عن الكيفية التي ترى فيها إلى الإرهاب أو تعرّفه.

لكن ذلك لا يعني أن معظم البشر في هذا العالم قد رأوا أن تكون لأميركا يدٌ طليقة في شنِّ حرب عالمية على الإرهاب. وحقيقة الأمر، أنّ كثيراً من ردود الفعل العامة الباكرة في الشرق الأوسط، كانت قد استندت إلى افتراض مفاده أنّ الولايات المتحدة، التي كانت تعدّ العدّة لحربها على نظام طالبان في

أفغانستان، لم تقدّم ما يكفي من الأدلّة التي تثبت مسؤولية طالبان، على الرغم من أنّ شعبية نظام هؤلاء كانت في أدنى درجاتها في العالمين العربي والإسلامي على اتساعهما. ومع أنّ كثيراً من الحكومات في الشرق الأوسط قد ساندت الولايات المتحدة في حملتها، إلا أنّ الشعوب بقيت غير مقتنعة. (يحتاج انعدام الثقة الشعبي الذي شهدته المنطقة حيال الأدلّة الأساسية التي قدّمتها الولايات المتحدة إلى تفسير، وهو ما سأتناوله في الفصل التالي).

وفي النهاية، وعلى الرغم من الانعدام الشعبي للثقة في نوايا أميركا، في الشرق الأوسط على الأقل، كان حقّ أميركا في الردّ على ذلك العمل المروّع من القوة بما يكفي لأن يجتذب من الدول دعماً مهمّاً للحملة الرامية إلى الإطاحة بنظام طالبان وتدمير منظمة القاعدة التي يتزعّمها أسامة بن لادن. بل إنّ دولاً مثل إيران ذاتها لم تحجم عن دعم تلك العمليات، إلى جانب عشرات الأمم في أرجاء المعمورة، خاصة في الشرق الأوسط، أسهمت في جمع المعلومات الاستخبارية، أو التنسيق المالي، أو تقديم العون لسير العمليات الفعلي. ولا شكّ أنّ جزءاً من هذا الدعم الحكومي قد قُدِّم لتجنّب استهداف هذه الحكومات من قِبَل أميركا الجريحة والغاضبة. غير أنّ قلّة قليلة من حكومات العالم هي التي تحدّت على نحوٍ جدّي شرعية المهمّة الأولى المتمثّلة بالردّ على الهجمات من خلال تدمير القاعدة.

ولقد حدّد البيت الأبيض مهمّة أخرى واعتبرها جزءاً لا يتجزّأ من الحرب العالمية على الإرهاب. ولقد تلقّت هذه المهمّة أيضاً، ومن حيث المبدأ، دعماً مالياً كبيراً، هو الدعم الذي تجلى في قرار مجلس الأمم 1373 في 28 أيلول 2001، الذي يفرض على الدول مقارعة الإرهاب. لكن مثل هذا القرار لم يكن ممكناً إلا لأنّ الدول الأعضاء لم تتطرق إلى مسألة تعريف الإرهاب. فثمة شيء كان واضحاً: كثير من الدول من بين التي صوّتت للقرار ما كانت لتوافق الولايات المتحدة على مثل هذا التعريف. وقد خشي كثيرون أن يغدو "الإرهاب" ضرباً من الاختزال المريح للولايات المتحدة وسواها من الأمم في وصم أعدائها وتصنيفهم.

لقد أُعطيت الولايات المتحدة سلطة أخلاقية دولية بعد هجمات أيلول لكي تبدأ بإيجاد أرضية مشتركة لتعريف الإرهاب، على الرغم من أنّه لم يكن ثمة اتفاق على الكيفية التي ينبغي أن يتمّ بها تعريف "الجماعات الإرهابية". وكانت الإدارة بحاجة لأن تقرّر من هي الجماعات التي يجب أن تصنّف على أنّها عدوّة من بين آلاف الجماعات الإرهابية المنتشرة في أرجاء الدنيا. وقد عمد الرئيس بوش إلى تدقيق هذه المهمة الثانية بالتركيز على الجماعات الإرهابية ذات "المدى العالمي". غير أنّه ظلّت هنالك قضية أساسية: أيّ المنظّمات هي التي ينبغي أن تُستَهدَف؟ فالدول تختلف اختلافاً واسعاً حول من تعتبرهم جماعة "إرهابية". فبعض الحكومات تصنّف جماعات المعارضة ضمن الجماعات الإرهابية

لمجرّد معارضتها. وبعضها الآخر يرفض قبول التصنيف الذي وضعته الولايات المتحدة. ولقد واجهت الولايات المتحدة المشكلة المتمثّلة بكيفية تصنيف بعض جماعات المعارضة العراقية التي تدعمها، أو جماعة حزب الله، تلك الجماعة اللبنانية المقاتلة، التي تعارضها. فمعظم أبناء الشرق الأوسط ينكرون أن يكون حزب الله منظمة إرهابية لأنّ أهدافه الأساسية هي الجنود الإسرائيليين على الأرض اللبنانية. ولئن كان بمقدور أميركا أن تستخفّ بآراء الدول الأخرى وتستهدف كلّ مشروع إرهابي تريد أن تهاجمه، إلا أنها ستجد نفسها وحيدة على نحو متزايد في ملاحقتها للإرهابيين، وهذه ثغرة لا بدّ أن تستغلّها مثل تلك الجماعات.

ولعلّ الولايات المتحدة، في تركيزها الجهود على تحديد "الجماعات الإرهابية"، أن تكون قد ضيّعت فرصة حشد أعضاء مجلس الأمن خلف تعريف واضح لـ "الإرهاب" بوصفه أداةً. ومن الأمثلة الوجيهة على ذلك منظمة حزب الله في لبنان. فحين تسعى الولايات المتحدة إلى تعبئة الدول الأخرى ومطالبتها بأن توقف دعمها لحزب الله لأنّ الولايات المتحدة تعرّف هذا الحزب بأنّه "منظمة إرهابية"، فإنّ من غير المحتمل لهذه الاستراتيجية أن تعمل عملها. فبصرف النظر عن الطرائق التي يستخدمها حزب الله، يبقى من المستبعد أن تقطع دول مثل إيران علاقاتها مع هذه الجماعة أو أن تسعى وراء تفكيكها. ففي لبنان، حزب الله هو حزب سياسي يجد دعماً كبيراً وله عدد من الأعضاء في البرلمان.

وهو أيضاً حركة دينية لها روابطها الدينية العميقة مع إيران. أمّا هدفه المعلن المتمثّل بإجبار إسرائيل على الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة فهو هدف يحظى بالقبول والثناء في كثير من الشرق الأوسط أبعد من إيران، كما ينظر الكثيرون في المنطقة إلى طرائقه، التي تركّز أساساً على مهاجمة الجنود الإسرائيليين على الأرض اللبنانية، على أنها ليست طرائق "إرهابية". ولذلك فإنّ من الصعب، إنْ لم يكن من المستحيل، على الولايات المتحدة أن تتوقّع تعاون المنطقة الكامل إذا ما كان الهدف الأميركي متمثّلاً بمهاجمة هذه الجماعة وقطع كلّ دعم عنها. ومن جهة أخرى، فإنّ تركيز الجهود الأميركية على دحر "الوسائل الإرهابية" التي تُعَرّف بأنها استهداف المدنيين المتعمّد كفيل بأن يوفّر فرصة أفضل للنجاح. ولو أنّ الولايات المتحدة تحشد المجتمع الدولي وراء تطبيق هذا المبدأ على نطاق كوني، لكانت توفّر فرصة طيبة لإقناع الدول الأخرى بالضغط على حزب الله وإجباره على العدول عن استخدام الوسائل الإرهابية ونزع الشرعية عن تلك الوسائل حتى في لبنان.

والحال، إنّ وفاض الولايات المتحدة لم يكن خالياً من البدائل: أولها، أن تعمل مع الأمم المتحدة وسواها من المنظمات الدولية والإقليمية على تمرير قرارات تحظّر استهداف المدنيين وتعزّز المعايير القائمة التي تعتبر دولةً ما مسؤولةً عن الأعمال الإجرامية التي يرتكبها إرهابيون يعملون انطلاقاً من أرضها.

وثانيها، أن تبني على الحلف المناهض للإرهاب الذي حشدته كيما تقيم نظام معاهدة جديدة شاملة، تمضي إلى أبعد من الترقيع القائم للاتفاقات التي تطالب الدول الفردية إمّا بمحاكمة الإرهابيين أو بتسليمهم، وذلك عن طريق التعهّد بقيام ردّ جماعي قوي على الهجمات التي تستهدف مدنيين. فمثل هذا الردّ يستهدف كلاً من المجرمين والدول التي تدعمهم ويمكن أن يتّخذ أشكالاً عديدة، بما في ذلك التعاون الاستخباري، وتجميد المدّخرات، والعقوبات الاقتصادية، والطرد من المنظمات الدولية، وملاحقة المجرمين ومحاكمتهم. وبهذه الطريقة فإنَّ هجوماً متعمّداً على أهداف مدنية في دولة معينة سوف يغدو هجوماً على الجميع. كما يمكن للدول خارج الحلف أن تقرّ هذه المعاهدة وتصادق عليها.

ومثل هذه المعاهدة سوف لن تذهب بحقّ الدولة في الدفاع عن نفسها حين تتعرّض للهجوم بل ستضيف أمراً بالقيام بفعل جماعي. والفارق هنا هو التالي: حين تهاجمُ دولةً، فإنّك تكون في حالة حرب مع تلك الدولة وحلفائها؛ وحين تهاجم المدنيين عامداً، فإنك تكون في حرب مع المجتمع الدولي برمّته وتستحقّ ردّاً دولياً بصورة آلية. ومع أنّ الأمر لن يخلو قطّ من ضروب الالتباس، إلا أنّ قوة الرّدع التي يحظى بها الردّ الجماعي المخوَّل سوف تكون أقوى بكثير من التهديد بفعلٍ أحادي الجانب تقوم به الأمة التي نالها هجوم الإرهابيين. والأهمّ من ذلك، أنّ المجتمع الدولي، باتّخاذه هذه الوجهة، سوف يقطع شوطاً طويلاً صوب نزع الشرعية عن

استهداف الإرهابيين المتعمّد للمدنيين. وبالتركيز على استهداف المدنيين، بدلاً من التركيز على هوية المذنبين أو بواعثهم، فإنّ بمقدورنا أن نتجنّب المصاعب والسجالات التي تفرّق الصفوف بشأن ما يشكّل قوام الإرهاب وأيّ الجماعات هي الإرهابية وأيُّها هي التي "تقاتل من أجل الحرية".

كان من الواضح أنّ عيب المقاربة أحادية الجانب سوف يتمثّل في الحدّ من قدرة الولايات المتحدة على تحديد الجماعات الإرهابية وتحديد أيُّها التي ينبغي أن تُواجَه أولاً. وكان ذلك مرتبطاً جزئياً بتشويش الفارق بين "الإرهابيين" و "الأعداء". فبدا الأمر كما لو أن الولايات المتحدة تفقد حقّها في معاملةٍ جماعةٍ أو دولةٍ معينةٍ معاملةَ العدو والخصم إذا لم تكن هذه الجماعة أو الدولة قد عُرِّفَت كجماعة أو دولة إرهابية. ولا شكّ أن للولايات المتحدة الحقّ في أن تعتبر إيران عدوة وأن تبني سياستها تجاهها على هذا الأساس سواء وُصِمَت إيران بأنها "دولة إرهابية" أم لا. كما أن للولايات المتحدة الحقّ في أن تعامل حزب الله، الذي قتل أميركيين، معاملة العدو، بصرف النظر عن الكيفية التي ينظر بها الآخرون إلى هذه المنظمة.

كان للنجاح الباكر في إسقاط نظام طالبان في أفغانستان أن يعزّز تلك المقاربة أحادية الجانب التي قاربت بها الولايات المتحدة مسألة تحديد الجماعات الإرهابية أبعد من القاعدة. فلقد بدا هذا الإنجاز الذي تمَّ بسهولة مدهشة كما لو أنّه برهان على الرأي القائل بأن بمقدور أميركا أن تمضي وحدها في عصر القوة

العظمى الوحيدة. أمّا الأداء الممتاز الذي أدّته الأسلحة عالية التقنية فقد مكّن من خوض حرب سريعة في أرض نائية ووعرة كانت قد هزمت الجيش السوفيتي الهائل والقريب. والحال، أنّ إدراك ما ترتّب على انهيار الاتحاد السوفيتي من اتّساع الفجوة التكنولوجية العسكرية بين الولايات المتحدة وبقية العالم قد شجّع أولئك الذين يعتقدون أنّ بمقدور أميركا أن تعمل لوحدها. وهذا موقف لم يبرز في أي مكان آخر بذلك الوضوح الذي برز به في سجال الولايات المتحدة حول السياسة التي ينبغي اتّباعها تجاه عراق صدّام حسين، حيث رأى البيت الأبيض والبنتاغون أن يتمّ التحضير للحرب الرامية إلى إسقاط حكم صدّام حسين حتى ولو رفضت معظم دول العالم هذه الفكرة. كان لدى أحاديي الجانب حجّة جاهزة: لأنّ أميركا قوية جداً، فإنّ قلّة قليلة هي التي سوف تعارضها إذا ما قرّرت أن تعمل حتى ولو لم يَرُق لهم عملها. فما من أحد يرغب في أن يقف في الطرف الخاسر، وأميركا واثقة من أنها ستكون الرابحة في نهاية المطاف. وبصرف النظر عن الفضائل الفعلية التي ينطوي عليها هذا الرأي، فإنّه ليس من الصعب أن نرى أنّ مثل هذه المقاربة لا يمكن أن تولّد الاستياء الدولي الشديد.

2. جانبا العرض والطلب في الإرهاب:

تمثّل سببٍ ثانٍ للفجوة بين الولايات المتحدة وكثيرٍ من بقية العالم في الطريقة التي قاربت بها الولايات المتحدة ظاهرة الإرهاب.

فباعتبارها الإرهاب نتاج جماعات منظمة يمكن مواجهتها وتدميرها، دون اعتبار لأهدافها أو للأسباب التي جعلتها تفلح في تجنيد الكثير من الأعضاء المتحمسين، كانت الولايات المتحدة تقارب الأمر تلك المقاربة التي لا تهتمّ إلا بجانب "العرض" وحده.

ومن الواضح أن رؤية البيت الأبيض إلى الإرهاب قد اصطبغت بهجمات 9/11. فقد كان من الصعب، في الحالة التي وجد الأميركيون أنفسهم عليها، أن يتوقّفوا ليتأملوا الفكرة التي مفادها أنّ هذا الرعب يمكن أن يُفَسّر على نحوٍ عقلاني. وغالباً ما كان ثمّة خوف من أن يكون التفسير ضرباً من التبرير. وهذا خوف مفهوم لكنه ينطوي أيضاً، وفي النهاية، على هزيمة للذات وإحباط لها. ففي تفسير مثل هذه الأفعال، يأمل المرء أن يقلّل فرصة المزيد من الرعب.

لا شكّ أن للقاعدة بزعامة أسامة بن لادن، وإلى جانب تكتيكات الإرهاب العنيف التي تتّبعها، أهدافها التي لا يمكن أن تنسجم ليس مع ما تمثّله أميركا وحسب بل أيضاً مع نظام الدولة القائم الآن في الشرق الأوسط. فهي تسعى إلى بَذْرِ الاضطراب في هذا النظام ونزع استقراره، وإلى الإطاحة بحكومات المنطقة، وإقامة نظام سياسي إسلامي على شاكلتها. وإنه لمن الصعب أن نرى كيف يمكن الحدّ من تهديد هذه المنظمة دون السعي إلى تحطيمها. فهي مُوَرِّدُ الإرهاب الذي ينبغي مواجهته تلك المواجهة المباشرة.

غير أنه بالإضافة إلى أهداف بن لادن وسواه من زعماء القاعدة، ثمة جانب "الطلب" في الإرهاب. فلكي يُفْلِح منظّمو الإرهاب لا بدّ لهم، بصرف النظر عن أهدافهم ، أن يجنّدوا أعضاء متحمسين، ويحصلوا على التمويل، ويلجؤوا إلى الرأي العام في سعيهم وراء غاياتهم السياسية. وغالباً ما يكون اليأس العام والإذلال تلك الأرض الخصبة التي يستغلّها منظّمو الإرهاب. وإذا ما استمر وجود جانب الطلب هذا، فإن من غير المحتمل أن يتمّ احتواء هذه الظاهرة. ذلك أنّه مقابل كل منظمة إرهابية يتم تحطيمها، سوف يبرز مورّدون آخرون ليستغلوا الطلب المتواصل.

ومن الجدير بالملاحظة أنّه ليس من الضروري أن يكون ثمة اتّساق بين أهداف منظّمي الإرهاب الحقيقية وأسباب اليأس والإذلال التي تولّد جانب الطلب المُشار إليه. فأهداف أسامة بن لادن، على سبيل المثال، تركّزت أساساً على طرد القوى الأجنبية من العربية السعودية وإقامة نظام سياسي إسلامي في أرجاء العالم الإسلامي. ولكن ما إن احتاج أسامة بن لادن إلى حشد الرأي العام في المنطقة على أثر 9/11، حتى توقّف عن استخدام غاياته الكبرى كحجج تستجرّ له الدعم. حيث راح يركّز، بدلاً من ذلك، على قضايا لها وقعها لدى الجمهور وتفسّر بصورة أكمل ذلك الإحساس باليأس والإذلال بين العرب والمسلمين: الصراع العربي الإسرائيلي والعقوبات الاقتصادية على العراق. وبعبارة أخرى، فإنّ من الصعب أن نتصور كيف يمكن التعامل مع ظاهرة

الإرهاب دون التعامل مع القضايا الأساسية التي تخلق الأرض الخصبة لولادتها، تلك الأرضية التي يستغلّها المنظّمون الذين يمكن أن تكون لديهم مطامحهم الخاصة. هكذا رأى كثير من العالم أن حرب الولايات المتحدة على الإرهاب قد اقتصرت على حملة عسكرية شُنَّت على المورِّدين ولم تستثمر الأدوات السياسية والاقتصادية الضرورية في الحدّ من جانب الطلب الذي يلعب دوراً أساسياً في ظاهرة الإرهاب.

3. الإرهاب بوصفه وسيلة مقابل الإرهاب بوصفه إيديولوجيا:

كان خطاب الرئيس بوش للشعب الأميركي في 20 أيلول 2001، بعد بضعة أيام على الهجمات، خطاباً قوياً ومُلْهِماً. فقد ساعد الأميركيين على أن يبدؤوا بالتعامل مع آلامهم ومخاوفهم. غير أنّ هذا الخطاب، وهو يحشد الشعب وراء الحرب المعلنة على الإرهاب ويهيّئهم لدفع الأثمان المطلوبة، راح يتناول الإرهاب ببلاغة على أنّه ضرب آخر من ضروب الإيديولوجيات التي عرفها التاريخ ويتناول الإرهابيين على أنهم إيديولوجيون: "إنّهم ورثة تلك الإيديولوجيات المجرمة التي عرفها القرن العشرون جميعاً... يسيرون على درب الفاشية، والنازية، والشمولية. وسوف يسيرون على هذا الدرب إلى حيث ينتهي: في مقبرة التاريخ الدارسة حيث ترقد الأكاذيب المفضوحة". ومع أنّ هذه المقاربة نجحت في تعبئة الشعب في أميركا، إلا أنه سرعان ما اتّضح أنّ آخرين في أرجاء العالم

ينظرون إلى ظاهرة الإرهاب نظرة مختلفة، وأنّ هذه الاختلافات ناجمة عن السياسة بوجه خاص ومرتبطة بها.

ففي الأشهر التالية، راحت إدارة بوش تشنّ حربها على الإرهاب كما لو أنّ هذا الأخير ضَرْبٌ من الحركة، أو الإيديولوجيا، أو الحلف السياسي، دون أيّ تفريق يُذْكَر بين مختلف الحالات. ولقد شوّهت هذه المقاربة نظرتنا الأخلاقية إلى العالم ومكّنت واحداً مثل سلوبودان ميليسوفيتش، الرئيس اليوغسلافي السابق، من أن يبرّر، أمام العدالة الدولية، سياسات الموت والتطهير العرقي الرهيبة التي كان يمارسها على أنّها حرب على الإرهاب.

كثيرون في العالم هم الذين ينظرون إلى الإرهاب نظرة مختلفة: بوصفه أداة، لا بوصفه حركة؛ بوصفه وسيلة غير أخلاقية تستخدمها جماعات معينة، لبعضها قضايا عادلة، بخلاف بعضها الآخر الذي ليس لديه مثل هذه القضايا.

وتبعاً لهذه المقاربة، فإنّ الحدّ من وقوع الإرهاب يقتضي نزع الشرعية عنه على مستوى دوليّ كما يقتضي إزالة الشروط التي يزدهر فيها وجَعْلها في الحدّ الأدنى. فالشرعية واللاشرعية، بالتعريف، لا يمكن تقريرهما والحسم فيهما على نحوٍ أحادي الجانب؛ وحين تبدو الولايات المتحدة على أنها تسير بعكس بقية العالم، فإنّ أفعالها هي التي تبدو خارجة على الشرعية.

والسّجال ضدّ الإرهاب هو سجال أخلاقي أساساً: فلكي تقنع آخرين بالعدول عن استخدام مثل هذه التكتيكات، ينبغي أن يكون لكلامك سلطان أخلاقي، وأولئك الذين لديهم قضاياهم المشروعة ويتغاضون عن الإرهاب كسبيل لخدمة غاياتهم إنّما ينظرون إلى هذا الإرهاب على أنّه سلاح بيد الضعفاء والمغلوبين على أمرهم ممّن يواجهون عدواً لا طاقة لهم بقوته. ولا شكّ أنّ أولئك الشرق أوسطيين الذين يدعمون العمليات التي تقوم بها الجماعات الفلسطينية ضد الإسرائيليين، بما في ذلك الهجمات على المدنيين، لا يعتبرون تلك العمليات إرهاباً بل أعمالاً تندرج في إطار التحرر الوطني. ولقد شكّل هذا المنظور نقطة نزاع أساسية بين الولايات المتحدة وكثير من الأفراد والهيئات في المنطقة، بما في ذلك الحكومات فيها. فقد رأى كثيرون في الشرق الأوسط كما في أجزاء أخرى من العالم أنّ من غير الممكن أن نفصل فصلاً تاماً بين تعريف الإرهاب والدرجة التي تصل إليها شرعية الهدف الذي تعلنه جماعة معينة، فضلاً عن درجة التفوق الكاسح التي بلغتها قوة العدو الذي تواجهه هذه الجماعة. فالإرهاب، في هذه النظرة، هو سلاح اليائس والضعيف.

وهذا تصوّر ينبغي تحدّيه، كما حاولت الولايات المتحدة أن تفعل: فالوسائل الإرهابية ينبغي أن تُرْفَض بصرف النظر عن الأهداف التي تتوخّاها. بيد أنّ أيّ جهد يُفْلح في الحدّ من اللجوء إلى الإرهاب لا بدّ له أيضاً من أن يقنع البشر والجماعات لا بانعدام

شرعية قضيتهم بل بانعدام شرعية الوسائل التي يتّخذونها. ومثل هذا السجال هو سجال أخلاقي: فالغايات، مهما تكن نبيلة، لا يمكن لها أن تبرّر الوسائل. وقصارى القول في هذا السجال أنّ الهجوم المتعمّد على أهداف مدنية هو أمر غير مقبول تحت أي ظرف أو مبرّر.

غير أنّ إقناع الآخرين بمثل هذا التصور الوجيه يفرض على من يطلقون هذا السجال أن يكون لكلامهم سلطان أخلاقي. ولكي يكون هذا السجال أشدّ إقناعاً، لا بدّ أن يستخدمه آخرون ممن لديهم سلطان أخلاقي. ويقتضي مثل هذا التكتيك لجوءاً إلى المجتمعات، كما يقتضي جهوداً متعددة الجوانب بغية ترسيخ التصور الذي ينزع الشرعية عن الوسائل الإرهابية. أمّا التركيز المفهوم على تحطيم القاعدة، والتركيز على الإرهابيين بوصفهم زمرة يمكن فصلها عن المجتمع، فقد قوّض قدرة أميركا على نزع الشرعية عن الإرهاب. ولقد تمثّلت واحدة من النتائج الرديئة التي برزت في الأشهر التالية لحدث 9/11 بأنّه في الوقت الذي حُطِّمت فيه المنظمات الإرهابية، خاصة القاعدة، راحت الوسائل الإرهابية تكتسب مزيداً من الشرعية في أعين مزيد من البشر في الشرق الأوسط.

ومن الأمثلة اللافتة على هذا الصعيد ما جرى حين راحت الولايات المتحدة تشجّع الحكومات العربية على إدانة الإرهاب الذي تمارسه الجماعات الفلسطينية في إسرائيل على أثر سلسلة من

العمليات الانتحارية التي قتلت كثيرين في ربيع 2002. فقد كان ذلك جهداً أميركياً مهمّاً ونبيلاً يتّسق مع التصور الأخلاقي الذي يرى أنّ الغايات لا يمكن أن تبرّر مثل هذه الوسائل الشنيعة. ولقد تعاظمت جهود الولايات المتحدة بعد الاعتداءات الإسرائيلية الواسعة على المدن الفلسطينية في الضفة الغربية والتي أدّت إلى عشرات الإصابات بين المدنيين وإلى دمار كبير في الأملاك. فلقد نال النقد العالمي كلاً من العمليات الانتحارية والاعتداءات الإسرائيلية، خاصةً من قبل جماعات حقوق الإنسان التي رأت في ذلك انتهاكاً للقانون الدولي والمعايير الدولية أدّى إلى قتل وجرح كثير من المدنيين. أمّا اقتصار تركيز إدارة بوش على ضرورة الردّ على الهجمات الإرهابية فقد أعاق قدرتها على التشديد على الحدود الأخلاقية التي ينبغي أن تُفْرَضَ على الردّ أيضاً. هكذا تمّ نسيان ضرورة أن تعبّر أميركا عن تعاطفها مع الضحايا الأبرياء في الجانب الفلسطيني. وكانت النتيجة أن تقوّضت إلى حدٍّ بعيد قدرة الولايات المتحدة على إقناع الشعوب والحكومات في الشرق الأوسط برفض الإرهاب.

وحين برّر الرئيس بوش المطالبة الأميركية بوجوب انسحاب إسرائيل العاجل من المدن الفلسطينية، لم يتكلم سوى على "العواقب" المحتملة التي يمكن أن تترتّب على العمليات الإسرائيلية المتواصلة دون أن يتطرّق إلى الخطأ الأخلاقي الذي بلغ فيه العدوان الإسرائيلي حدّاً ومدىً لا يمكن تبريرهما، ودون أن

يتطرّق إلى الوسائل التي استخدمتها إسرائيل. وفي طلبه من إسرائيل أن تنسحب بعد أسبوع من حملتها العسكرية في الضفة الغربية، رأى الرئيس، في 4 نيسان 2002، أنَّ الوضع الذي وجد الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات نفسه "هو من صنع يديه إلى حدٍّ بعيد". وقد عبّر الرئيس بوش عن طلبه على النحو التالي:"تواجه إسرائيل تحدياً رهيباً وخطيراً. ولقد عملت، طوال سبعة أيام، على اجتثاث جحور الإرهاب. وأميركا تدرك حقّ إسرائيل في الدفاع عن نفسها ضدّ الإرهاب. غير أنّي أطالب إسرائيل، بغية وضع أسس السلام المقبل، بأن توقف غاراتها في المناطق التي يسيطر عليها الفلسطينيون وتبدأ بالانسحاب من تلك المدن التي احتلتها مؤخراً".

هكذا نكون، في مقاربتنا للصراع الفلسطيني الإسرائيلي، قد اتخذنا موقفاً أخلاقياً واضحاً من الإرهاب الفلسطيني. وهو موقف يسير على النحو التالي: ينبغي على الفلسطينيين أن يضبطوا ردّة فعلهم على ما يعيشونه من شدّة وضيق يوميين بعد خمسة وثلاثين عاماً من الاحتلال وكذلك على الإذلال الذي يتحمله جيل كامل في كلّ يوم. فعلى الرغم من حقّهم بالحرية، إلاّ أنّهم لا حقّ لهم باستخدام التكتيكات الإرهابية التي تُنْزِلُ قدراً كبيراً من الرعب في كثير من البشر الأبرياء. فالغايات لا يمكن أن تبرّر الوسائل بأي حال من الأحوال. وهذا موقف أخلاقي لافت ونبيل.

ولنتحوّل الآن إلى الإسرائيليين وما يعيشونه من رعب في مواجهة العمليات الانتحارية. فنحن نفهم أنّه لابدّ لهم أن يردّوا

بطريقة ما، لكننا نتصرّف كما لو أنَّ بمقدورهم أن يردّوا بأية طريقة يختارونها. فلم نفرض تلك الحدود الأخلاقية التي تطالب مثل هذه الأفعال بألاّ تكون شاملة وكاسحة، وبأن تكون أقلّ إيذاءً لمئات آلاف الفلسطينيين الأبرياء الذين يعانون من عواقبها. والحقيقة، أننا لم نتّخذ هنا أيّ موقف أخلاقي وبدونا كما لو أننا نعطي الإسرائيليين شيكاً على بياض كيما يفعلوا ما يشاؤون. ونتيجة لذلك كان أن تقوّض سلطاننا الأخلاقي العالمي.

كما تقوّضت، في هذا السياق أيضاً، قدرة حكومات المنطقة على مدّ يد العون في نزع الشرعية عن الإرهاب. وعلى سبيل المثال، فقد طلب الرئيس من الزعماء العرب، خلال تلك الأحداث الدموية ذاتها في نيسان 2002، أن يدينوا الإرهاب. وأرسل وزير الخارجية كولن باول لزيارة الدول العربية الصديقة، بما فيها الأردن ومصر، على أمل أن تصدر عنهم مثل هذه الإدانة بحضور باول. لكن المشكلة أنَّ المحطات التلفزيونية في المنطقة، والتي ليس للحكومات في الغالب تلك السيطرة عليها، كانت تبثّ بثّاً حيّاً ذلك الدمار الحاصل في مدن الضفة الغربية، وصور الدبابات وهي تهدّم المنازل، وتقارير مؤلمة عن عشرات الضحايا المدنيين، وإنْ كانت التقارير التلفزيونية في إسرائيل قد ركّزت على ضحايا العمليات الانتحارية من المدنيين. ولقد تظاهر مئات الآلاف من البشر في العالم العربي، بما في ذلك مليون من المتظاهرين في المغرب. وراح المتّصلون والمعلّقون في البرامج التلفزيونية ينحون

باللائمة على أميركا لعجزها عن وضع حدٍّ للعدوان وعدم إظهارها أيّ تعاطف مع الوجع العربي. ووصفوا الزعماء العرب من أصدقاء الولايات المتحدة، مثل الرئيس المصري حسني مبارك والملك الأردني عبد الله الثاني، بأنهم "خَدَمُ أميركا". وبصرف النظر عن مزايا هذه المشاعر والتصورات، فإنَّ الزعماء العرب حين ينتقدون الإرهاب الفلسطيني في تلك البيئة استجابةً للضغط الأميركي العام، إنما ينزعون الشرعية عن أنفسهم أكثر مما ينزعونها عن الإرهاب.

وبينما تجاهلنا البعد الأخلاقي في الأعمال الإسرائيلية، اخترنا أن نقوّم السلوك الفلسطيني تبعاً لهذا البعد وحده. ولقد كان لمثل هذا التحيّز أن يعيق قدرتنا على إدراك الحاجة إلى تقديم بدائل سياسية جدّية تحلّ محلّ العنف حتّى ونحن نطالب تلك المطالبة المحقّة بأن يتوقف الإرهاب. وبالطبع، فإنَّ من غير الممكن تبرير الإرهاب في أي ظرف من الظروف، غير أنَّ الاحتمال الأكبر هو أن يتجذّر هذا الإرهاب مزيداً من التجذّر حين لا تتوافر البدائل السلمية الرامية إلى تخفيف المشقّة والعناء وإزالتهما. فلا بدّ لأية استراتيجية ناجحة في الحدّ من الإرهاب من أن تشتمل على بدائل إيجابية وبنّاءة. أمّا الزعم بأن قضية الإرهاب لا تعدو كونها خياراً بين الخير والشرّ فلا يعبّر سوى عن الجهل المطبق بالنفس البشرية. وفي العام 2002، أيدّ نصف الإسرائيليين ذلك التصوّر غير الأخلاقي المتمثل بطرد جميع الفلسطينيين من منازلهم كسبيل

لوقف الرعب الذي لا يطاق المتمثّل بالإرهاب الانتحاري، ذلك أنّهم لم يروا في الأفق أيّ حلّ سلمي، كما دعم كثير من الفلسطينيين الإرهاب كسبيل للخلاص من ألم الاحتلال الذي لا يطاق. غير أنَّ الأمر لم يكن كذلك قبل انهيار المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية في صيف العام2000. وما تشير إليه الأدلّة هو أنَّ تعزيز الأمل بوجود وسائل سلمية هو عاملٌ مهمٌّ في الحدّ من الإرهاب: فعلى الرغم من تحفظات كلا الطرفين على العملية السلمية في مسارها الفلسطيني الإسرائيلي، وعلى الرغم من تواصل العنف حتى آنذاك، إلاّ أنَّ عدد الحوادث الإرهابية في الشرق الأوسط كان يقلّ في كلّ عام خلال النصف الثاني من تسعينيات القرن العشرين، إلى أن بلغ أدنى درجاته في تلك السنتين الواعدتين 1999 . 2000.

4 . دور الدول مقابل الفاعلين خارج الدول:

على الرغم من أنَّ التهديد الذي يطرحه بن لادن يعتمد جزئياً على دولةٍ راعية، هي أفغانستان في ظلّ حكومة طالبان، فإنَّ من الواضح أيضاً أنَّ القاعدة هي منظمة خارج الدولة تعمل أيضاً في أوطانٍ لا تتلقّى فيها أيّ دعم رسمي. ولقد اعتادت وزارة الخارجية الأميركية على أن تصدر قوائم بالجماعات الإرهابية و"الدول الإرهابية"، لكن التركيز الأميركي شهد تحولاً متزايداً باتجاه الدور الذي تلعبه الدول على هذا الصعيد. وقد تجلّى هذا التحوّل في

وصف الرئيس بوش لإيران، والعراق، وكوريا الشمالية بأنّها "محور الشرّ" في خطابه عن حال الاتحاد يوم 29 كانون الثاني 2002، وفي التركيز على ضرورة الإطاحة بنظام صدّام حسين في العراق بوصفه حجر الزاوية في السياسة الأميركية المناهضة للإرهاب.

لكن المجتمع الدولي الواسع لا يشارك الولايات المتحدة هذا القدر من تركيزها على مواجهة الدول المعادية كأولوية في الحرب على الإرهاب، ذلك لأنَّ هجمات 9/11 كشفت هشاشة الدول بالقياس إلى الإرهاب خارج الدول في عصر العولمة. ولا يعني هذا أنَّ الدول كفّت عن كونها اللاعب الأقوى في السياسة الدولية وفي معظم الميادين. لكن الثورة التكنولوجية، خاصةً ثورة المعلومات، التي منحت قوةً مستجدّة لأفرادٍ وجماعات أدنى من الدولة، جعلت الإرهاب وارداً أكثر وجعلت قدرته على الأقل أعظم بكثير. ولقد بات ردع الدول ، بما فيها الدول الطموحة مثل العراق، أسهل بكثير من ردع أولئك الأفراد أو تلك الجماعات الشبحية غير واضحة المعالم. حتى الاتحاد السوفيتي الستاليني ردعته القوة والعزيمة الأميركية، ذلك أنَّ الدول حسّاسة في النهاية تجاه العقاب، وتحديد العقاب يكون أسهل حين يعلم المرء من هو الفاعل.

والإرهاب يزدهر على الفوضى: فكلما ضعفت السلطة المركزية، تعاظم عدد الجماعات المقاتلة وازدادت صعوبة ردع مثل هذه الجماعات، حيث لا يعلم المرء من الذي ينبغي أن يُعَاقَبْ. لاحظوا، مثلاً، ذلك الفارق بين سوريا ولبنان: فسوريا دولة قوية

عسكرياً وفيها نظام سلطوي يفرض سيطرته المحكمة على البلاد، أمّا لبنان فصغير، وضعيف عسكرياً، ومنقسم طائفياً، وفيه حكومة لا تتمتع إلاّ بسيطرة رخوة على بعض أجزاء الدولة. وعلى الرغم من العداء المُعْلَن بين سوريا وإسرائيل، والذي هو عداء أشدّ بكثير من العداء المعلن بين الحكومة اللبنانية وإسرائيل، فإنّه لم تحصل أيّة هجمات إرهابية عبر الحدود السورية الإسرائيلية في حين حدثت عشراتٌ من مثل هذه الهجمات عبر الحدود اللبنانية الإسرائيلية. وعلى الرغم من قوّة إسرائيل الكبيرة والطاغية، إلاّ أنها عجزت عن وقف مثل هذه الهجمات حتى بعد غزوها لبنان في العام 1982 واحتلالها ذلك البلد طوال ما يقارب العقدين. وبالمقابل، فإنَّ القوّة الإسرائيلية قد أفلحت في ردع الهجمات المباشرة المنطلقة من سوريا.

ولا يعني هذا أن لا دور للدولة في دعم جماعات العنف خارج حدودها، بل يعني أن العنف، بما فيه الإرهاب، يمكن أن ينبعث من الدول الضعيفة أكثر من سواها، حتى لو لم يتلقَّ دعماً من قوى خارجية. وتقدّم أفغانستان مثالاً لافتاً على هذا الأمر. ففي أيام الاتحاد السوفيتي، كان احتمال تصدير الحكومة الشيوعية في أفغانستان للإرهاب أقلّ منه في السنوات التي تلت تفكك ذلك البلد وبروز نظام طالبان. وردع العنف يكون أسهل حين ينبعث من دول لا تزال تحتفظ بسيطرة داخلية قوية قياساً بردعه حين يترعرع في دول ضعيفة أو منهارة.

وتشير هذه المقارنة إلى أوجه مهمّة ينبغي توفّرها في أية استراتيجية تعتزم الحدّ من الإرهاب. وأول هذه الأوجه هو أنَّ على أية استراتيجية، حين تواجه دولاً معادية، أن تضمن نتيجة لا تفضي إلى ذلك الضرب، من انعدام الاستقرار الذي يشكّل مأوى للإرهاب ويحتفي به. وثاني هذه الأوجه هو أنّه لا يكفي أن نحدّ من الفرص المتاحة أمام الجماعات الإرهابية المحتملة، ذلك أنَّ مسألة الباعث والمحرّض هي مسألة أساسية أيضاً. فحتى حين تغدو فرص الإرهاب محدودة بفعل الوسائل العسكرية الناجعة، فإنَّ درجةَ دَفْعِ البشر إلى حالات التطرف تترك أثرها على احتمال أن يفلحوا في ممارسة ذلك التطرّف. وحين تكون ثمة إرادة، يكون ثمة طريق.

5. الفجوة في فهم الإرهاب الشرق أوسطي:

دور الدين:

كان من الطبيعي أن تطرح هجمات 11 أيلول أسئلة كثيرة عن بواعث أولئك الراغبين في أن يقترفوا مثل هذه الفظائع ضدّ الولايات المتحدة. وكان من المحتوم أن يتواصل الجدال حول العلاقة بين الإسلام كدين وثقافة والميل إلى اقتراف مثل هذا الإرهاب. فأولئك الذين نفذّوا الهجمات ورعاتهم اعترفوا، في النهاية، بأنهم يؤدّون رسالة دينية.

تمثّل واحد من أهمّ المواقف التي اتّخذها الرئيس بوش في الأيام الأولى التي تلت الرعب بمحاولته تجنّب الإفراط أو الغلوّ، حيث فرّق بين تلك القلة القليلة من الإرهابيين والمسلمين عموماً. ولقد ساعد هذا الموقف المهمّ ليس في خلق إمكانية التعاون بين الولايات المتحدة والبلدان الإسلامية التي أرعبتها القاعدة وحسب، بل أيضاً في الحدّ من ردة الفعل في أميركا على الأميركيين المسلمين والعرب.

غير أنه على الرغم من هذه المحاولات، سرعان ما شوّش الخطاب في أميركا على مثل هذا التفريق. وحين طُرِحَ السؤال "لماذا يكرهننا إلى هذا الحدّ ؟ "راحت "نا" الدالة على الجماعة هذه تعني العرب والمسلمين بصورة متزايدة، ولم تقتصر على أولئك الأفراد الذين نفذّوا الهجوم. بل إنّ المزاج كان أشدّ درامية واحتداماً في بعض الأنحاء: فمحرّر "الناشيونال ريفيو" النافذة المحافظة، ريتش لوري، ناقش على الملأ خيار"قصف مكّة بالأسلحة النووية" إذا ما جرت أية هجمة إرهابية كبيرة أخرى على الولايات المتحدة، على الرغم من اعترافه أيضاً بأنّ مثل هذا الهجوم "يبدو متطرفاً". أما المعلّق البارز فريد آيكل، وكيل وزارة الدفاع سابقاً فقد ختم مقالة في "الوول ستريت جرنال" (2 حزيران2002) بالقول: "إنّ حرباً نووية تُشَنّ على "الكفّار" يمكن أن تنتهي بتحويل مكة والمدينة إلى فجوتين كبيرتين نشطتين شعاعياً". ومع أنّ مثل هذه الكتابات لم تكن هي المعيار في أميركا بأيّ حال من الأحوال، إلاّ أنّها بدت

في العالمين الإسلامي والعربي كما لو أنّها سياسةٌ أميركية، مولّدةً بذلك مزيداً من السخط على الولايات المتحدة. وبحسب منطق هؤلاء الكتّاب، فإنَّ القضية هي كيف نردع هجماتٍ مستقبلية وحقُّ الولايات المتحدة في الثأر إذا ما قامت مثل هذه الهجمات؛ أمّا من وجهة نظر المسلمين في أرجاء العالم، فإنَّ مثل هذه الكتابات تخلط بين أفعال قلّة قليلة من الراديكاليين المسلمين والعقيدة الإسلامية، كما تعتبر الإسلام، وليس الإرهابيين، عدوّ أميركا.

ثمّة في القلب من هذا الخلط التحليلي ذلك الخوف الحقيقي الذي أعقب الكابوس المتمثّل في مشاهدة الهجمات المرعبة أثناء حصولها. فلقد كان من الصعب أن تفسّرَ كيف يمكن لأحدٍ ما أن يكون لديه من القسوة والبطش ما يكفي لأن يخطط مثل هذا الرعب وينفّذه، غير أنَّ ما انكشف حول الفاعلين جعل الوضع أسوأ بكثير: فهم يريدون الموت من أجل القضية ولذلك لم يكونوا يأبهون في الظاهر لمسألة الثواب والعقاب؛ وكان من الواضح أنَّ كثيراً منهم هم رجال أسوياء تلقّوا تعليماً جيداً نسبياً وأتوا من عوائل الطبقة الوسطى؛ كما أنّهم قاموا بمهمتهم هذه باسم الإسلام، ذلك الدين الذي لا يعرف عنه معظم الأميركيين سوى القليل. ومن المخيف بالطبع أن تفكّر بمواجهة أشخاص قساة لا يعرفون الرحمة، غير أن المرعب أكثر أن تتصورهم على أنَّهم بشر غامضون وغير عقلانيين. وكان من السهل أن يُفَسَّر هذا الغموض الظاهر في سلوكهم تفسيراً نفسياً بالإشارة إلى عقيدة دينية

عمياء، خاصةً حين يصادف أن يكون كثير من أولئك الذين يقومون بأعمال إرهابية في الشرق الأوسط، وليس القاعدة وحسب، إنّما يقومون بها باسم الإسلام.

بيد أنَّ نظرةً تحليلية إلى سلوك الجماعات التي تمارس الإرهاب، خاصةً من منظور تاريخيّ، تشير بوضوح إلى أنَّ الإسلام بحدّ ذاته ليس في القلب من ذلك الاستعداد أو الميل إلى ارتكاب مثل هذه الأعمال. كما يمكن أن نفسّر، دون لجوء إلى الدين، حتى تلك الظاهرة التي يكاد يتعذّر فهمها والمتمثّلة باستخدام الانتحار كوسيلة للعنف. ولا يعني هذا أنَّ الدين لا يلعب أيّ دور أو أنَّ كثيراً من الجماعات الإسلامية ليست خطيرة أو معادية، بل يعني وحسب أنَّ دور الدين ليس بالأمر الأساسي في فهم ظاهرة الإرهاب. فما يجعل هذه الجماعات خطيرة ليس طابعها الإسلامي بل وسائلها العنيفة وغاياتها المتعصّبة البعيدة عن التسامح. وبالمقابل، فإنَّ معظم المنظمات الدينية، بما فيها المنظمات السياسية في الشرق الأوسط، ليست عنيفة. وليس ثمّة مشكلة في الأصولية الدينية (كائناً ما كان هذا الدين)؛ فالمشكلة هي حين تسعى جماعة من الجماعات، سواء كانت دينية أو غير دينية، إلى فرض إرادتها على الآخرين من خلال العنف.

كانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين واحدةً من أكثر الجماعات الفلسطينية راديكاليةً في الشرق الأوسط أواخر ستينيات القرن العشرين. وهي منظمة علمانية أسّسها طبيب

مسيحي، هو جورج حبش. ولقد اجتذبت هذه الجبهة، التي تورطت في سلسلة شهيرة من عمليات خطف الطائرات، كثيراً من الأعضاء المتعلّمين. وينبغي لعلمانية هذه الجماعة أن تكون تَذْكِرَةً بتلك الافتراضات الخاطئة التي يمكن لكثيرين أن يفترضوها بشأن العلاقة بين الدين الإسلامي والعنف. صحيحٌ أن الجماعات الدينية التي تستخدم العنف تجد له بعض التبرير الديني، وأنَّ أنصارها يجدون دعماً لمواقفهم في مواد دينية، إلاّ أنَّ "التبرير الديني" لأمرٍ ما لا يتطابق مع كون هذا الشيء "ناجماً عن الدين". وطريقة جونستاون الدينية لا تمثّل المسيحية إلا بقدر ما يمثّل باروخ غولد شتاين وأنصاره اليهودية. وإنّه لمن اللافت، حين كان الوطنيون العلمانيون هم الذين يمارسون العنف في الشرق الأوسط في خمسينيات القرن العشرين وستينياته، أنَّ كلاً من الغرب ومثقفي المنطقة راحوا ينظرون إلى الإسلام كدين سلبي، بوصفه "أفيوناً للشعوب" يدفع الناس إلى تقبُّل الأوضاع القائمة وتعزيز الاستقرار. وكان التأويل السائد أنّ المسلم يكتفي بتقبُّل إرادة الله ولا يسعى إلى تغييرها، مكرّراً عبارة "الحمد لله"مهما تكن المحنة التي يجد فيها نفسه.

في تلك المرحلة، كان الغرب والولايات المتحدة ينظران إلى الحركات الوطنية العلمانية في الشرق الأوسط على أنّها القوة السياسية الأساسية النازعة لاستقرار المنطقة، وكانا ينظران إلى الجماعات الإسلامية، خاصةً تلك التي تدعمها حكومات صديقة،

على أنّها أقرب وأشدّ دعماً للاستقرار. وكان الإسرائيليون يرون هذا الرأي ذاته بعد احتلالهم الضفة الغربية وغزة في العام 1967. كانوا ينظرون إلى منظمة التحرير الفلسطينية، التي هي منظمة علمانية، على أنّها التهديد الأكبر لإسرائيل، ولذلك سعوا إلى استئصال نفوذها في الضفة الغربية وغزّة وراحوا يشجّعون الجماعات الإسلامية التقليدية التي كانت تنافس منظمة التحرير. وتلك الجماعات الإسلامية ذاتها هي التي ولّدت حماس والجهاد الإسلامي في نهاية المطاف، هاتين الحركتين المقاتلتين اللتين هما أشدّ قسوة من منظمة التحرير في استخدامهما للعنف.

وبالمثل، فإنّ من المهمّ أن نبقي في أذهاننا جذور أسامة بن لادن السياسية. ففي ثمانينيات القرن العشرين، حين كان الخوف من الشيوعية والاتحاد السوفيتي لا يزال الخطر الذي لا يفوقه أيّ خطر آخر، دفعتْ مهمةُ الإطاحةِ بالنظام الشيوعي الذي يدعمه السوفييت في أفغانستان الولاياتِ المتحدةَ إلى أن تتعهّد بالرعاية جماعاتٍ إسلاميةً في أرجاء العالم بغية قتال النظام في أفغانستان. وكانت الولايات المتحدة تشجّع مثل هذه الجهود باسم الجهاد، أو الكفاح الإسلامي، كيما تقنع مقاتلين مسلمين من أماكن بعيدة جداً مثل السعودية، ومصر، والسودان بالانضمام إلى هذا الكفاح العالمي ضدّ الشيوعيين الكفّار. بل إنّ الحكومة السعودية شُجِّعَت على إيواء متدينين متعصبين من أمثال أسامة بن لادن، خاصةً إذا ما كانوا أثرياء. وهكذا ولدت آنذاك، من تأويلٍ مختلف للإسلام،

تلك الظاهرة المتمثّلة بتجنيد أشخاص متمسّكين بالإسلام من أرجاء العالم لخوض ما يرى فيه هؤلاء المؤمنون حروباً مقدّسة، وهي ظاهرة من الواضح أنّه كان لها عواقب رهيبة لم تكن مقصودة في حينه.

أما الدور الذي لعبته حكومات عربية كثيرة في تعبئة الإسلاميين، الذين تنتقدهم هذه الحكومات اليوم، فقد وُلِدَ جزئياً من هذا الجهد المشترك والتعاوني مع الولايات المتحدة. فليس مدهشاً إذاً أنّ معظم أولئك الذين نفّذوا الهجمات على الولايات المتحدة كانوا مواطنين من دول صديقة مثل السعودية ومصر وليس من دول عدوّة، مثل إيران والعراق.

وبعيداً عن ظاهرة القاعدة، من المهمّ أن نلاحظ أنَّ الإرهاب والسخط على الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، مهما يكن عدم تقبّلنا لهما، لا يبدوان فريدين حين نتفحّص الأمر من منظور عالمي. وإذا ما وضعنا القاعدة جانباً بوصفها حالةً خاصةً رهيبة، فسوف تدهشنا الميول العالمية التي نجدها في الإرهاب. وتبعاً لتقارير وزارة الخارجية، وبخلاف الرأي الشائع، لم يكن الشرق الأوسط المنطقة الأبرز من حيث عدد الحوادث الإرهابية (كما تعرّفها وتصنّفها وزارة الخارجية) طوال تسعينيات القرن العشرين[1]. كما

---

1 - وزارة الخارجية في الولايات المتحدة الأميركية، تقرير بعنوان "نماذج الإرهاب العالمي" في العام 2000، صادر في العام 2001عن وزير الخارجية ومنسّق مناهضة الإرهاب (http://www.state.govs/s/ct/rls/pgtrtp/2000).

أنها لم تكن المنطقة الأبرز في عدد الهجمات على الأهداف الأميركية. بل إنَّ حوادث الإرهاب الشرق أوسطية كانت تنخفض في كلّ عام خلال السنوات الخمس السابقة على 9/11، حتى غدا الشرق الأوسط في العام 2000 أقلُّ منطقة في العالم تحدث فيها الهجمات الإرهابية باستثناء أميركا الشمالية. ومثل هذا الميل العالمي ينبغي أن يظلّ في أذهاننا إزاء النزوع إلى الربط بين الإسلام والإرهاب.

الدين والإرهاب الانتحاري:

تداخلَ لغزُ الهجمات الانتحارية مع اكتشاف أنّ كثيراً من مقاتلي القاعدة الذين نفّذوا تلك الهجمات هم أشخاص تلقّوا تعليماً جيداً وتحدّروا من عوائل تنتمي إلى الطبقة الوسطى. وبدا كما لو أنّ هذه المعلومات تناقض التصور الشعبي الذي مفاده أنّ ممارسي العنف السياسي يتحدّرون من الطبقات غير المتعلمة والمعوزة. والحال، أنّه ما من أدلّة على أنّ الفقر أو الافتقار إلى التعليم يشكّلان أهمّ عناصر العنف السياسي، على الرغم من إمكانية حضورهما كعاملين في الحالات المتطرفة. فالأسباب الأهمّ التي تدفع البشر إلى مثل هذه الأفعال، وإلى تجنيدهم من قبل الجماعات العنيفة، هي اليأس والإذلال، مما يرتبط بالآمال المعقودة على العلاقات الاجتماعية والسياسية وبتأويل هذه العلاقات. وهذان السببان هما أساسيان في تحديد جانب "الطلب" من جوانب الإرهاب.

من المعروف تاريخياً أنّ أولئك الذين استخدموا العنف لتحقيق غايات سياسية قد أتوا من الطبقات الوسطى والمتعلمة، سواء في الشرق الأوسط أم في أيّ مكان آخر. فالفئات الأرفع تعليماً بين الجمهور، والتي غالباً ما تنظر إلى نفسها على أنّها ثورية، كما في حالة ماركسيين مثل تشي غيفارا في أميركا اللاتينية، أو جورج حبش زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، عادةً ما تكون أقلّ قبولاً للموقع المتدنّي في السياسة والمجتمع وأشدّ إدراكاً لقدرتها على إحداث التغيير؛ ولذلك يزداد احتمال أن يمارس هؤلاء قناعاتهم وينقلونها إلى حيّز التنفيذ، على الرغم من أنّ معظمهم يستخدم الوسائل البعيدة عن العنف.

ويبدو اللجوء إلى الانتحار واحداً من أشدّ الأوجه زرعاً للحيرة والبلبلة بين أوجه الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة. ومن السهل في هذه الحالة، أن نتهرّب من الحاجة إلى تفسير مثل هذا السلوك الذي يبدو غير عقلاني في الظاهر ونركّز على العقيدة الإسلامية. بيد أنّ هنالك تفسيرات عقلانية لهذا الأمر. وأول هذه التفسيرات، أنَّ الدين لا يقوى على تفسير الانتحار بوصفه طريقة لممارسة الإرهاب، مع أنَّ مرتكبيه وأنصارهم يمكن أن يكونوا قد لووا الدين كيما يلائم غاياتهم وأزاحوا جانباً ذلك الأمر الأساسي الذي يحرّم الانتحار في الإسلام. كما أنَّ من الممكن بالسهولة ذاتها أن تُبْتَدع تأويلات توراتية ملتوية لتبرير ابتداع طريقةٍ دينيةٍ مسيحية أو يهودية تستثمر القصة التوراتية عن موت شمشون.

ثانياً، حين نفترض أنَّ المسلمين لا يهابون الموت إذ يؤمنون بأنّهم سوف يُثابون الجنّةَ، ما يزيد احتمال تقبلّهم للموت قياساً بسواهم، فإننا لا نحتاج لأن ننظر أبعد من شاشات تلفازاتنا لنرى ما يحصل قبل العمليات العسكرية الأميركية في أفغانستان: مئات الآلاف من المسلمين المؤمنين يحاولون الفرار من أفغانستان خشيةً على أرواحهم. بل إنَّ أشرطة بن لادن الدعائية التي يوزّعها في العالم العربي تبيّن أنَّ وسيلته الأساسية في تحريض أنصاره هي عرض صور المسلمين القتلى في فلسطين، والعراق، والشيشان بغية حثّ مشاهديه على التحرّك والعمل.

ثالثاً، لم تتفرّد الجماعات الإسلامية باستخدام العمليات الانتحارية، سواء تاريخياً أم في العهد القريب. صحيحٌ أنَّ منفذي العمليات الانتحارية في الشرق الأوسط خلال السنوات الأخيرة قد أتوا من جماعات إسلامية، وأنّهم يستخدمون مفهوم الشهادة في تفسير أفعالهم وتبريرها، غير أننا غالباً ما ننسى أنَّ الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وسواها من الجماعات الفلسطينية العلمانية المقاتلة (التي تضمّ في صفوفها مسيحيين) كانت تُدعى في خمسينيات القرن العشرين وستينياته باسم الفدائيين، أي الذين يقدّمون أرواحهم فداءً وتضحيةً. ومن المعروف تاريخياً أنَّ ثمة جماعات وشعوباً أخرى قد لجأت إلى الانتحار، مثل اليابانيين في الحرب العالمية الثانية. ومع أنَّ التركيز على الشرق الأوسط يبقى مفهوماً، فإنَّ ما يُغْفَل هو أنَّ نمور التاميل في سيريلانكا، وهم ليسوا عرباً

ولا مسلمين، ويصفون أنفسهم بأنّهم "منظمة تحرير وطني... لم يبلغ بها اختلال العقل حدّ ارتكاب أعمال العنف الأعمى انطلاقاً من التعصّب العرقي والديني"[2]. قد استخدموا العمليات الانتحارية كوسيلة عنيفة أكثر من أيّة جماعة أخرى في العالم كلّه بما في ذلك الشرق الأوسط.

وأخيراً، فإنَّ الجماعات العنيفة تستخدم العمليات الانتحارية لسببين اثنين: فهي فعّالة، فضلاً عن كونها مانحة للقوة. فحين ننظر إلى الأمر من حيث الفاعلين الأفراد، يبدو الانتحار كطريقة أو منهج عملاً بعيداً عن العقلانية كلّ البعد؛ أمّا حين ننظر إليه من حيث الجماعة الباطشة التي لا تعرف الرحمة، فيبدو مهولاً في فعاليته. هكذا ينبغي أن ننظر إلى منظمة بن لادن على أنّها طريقة دينية لأن طريقتها في الإقناع قريبة من عملية غسل الدماغ، على الرغم من أنَّ لكلّ من يطلب الموت أسبابه الفردية، بل إنّ بعضهم، بما في ذلك العلمانيين، كما تبيّن الحالة الفلسطينية، يلحّون على منظماتهم أن تساعدهم على تنفيذ الهجمات الانتحارية. وحين تشاء جماعة أن تستخدم البطش وأن تنفّذ عمليات قتل واسعة تكون التضحية بأعضاء الجماعة تكتيكاً هائلاً في فعاليته لأنَّ من العسير إلى أبعد الحدود أن يُوقَف في وجهه. فمن العسير أن يُردَعَ أو

---

2 ــ فيلوبيلال براباكاران، رئيس جبهة تحرير نمور التاميل، خطاب يوم الأبطال، 2001/11/27. متوفّر على الموقع:
http://www.eelamweb.com/leader/messages/herosday/2001/english/

يُعَاقَبَ أفرادٌ يطلبون الموت، ويكاد أن يكون من المستحيل وقف العمليات الإرهابية حين يشاء أفراد أن يستخدموا أجسادهم أسلحةً. وبهذا المعنى، فإنَّ اللاعقلانية البادية في العنف الانتحاري (أي ما تبدو عليه من انعدام الحساسية تجاه العقاب والثواب) تجعل منه استراتيجية عقلانية بالنسبة لأولئك الذين يريدون أصلاً أن يرتكبوا أعمال عنف لا رحمة فيها. وحتى من حيث محصّلة الضحايا، فإنَّ الجماعة لن تفقد سوى قلة قليلة من مقاتليها في الوقت الذي تنزل فيه بأعدائها إصابات تفوق ما كان يمكن أن تنزله بهم لو استخدمت وسائل كحرب العصابات.

والفعالية المهولة التي تتميّز بها العمليات الانتحارية، خاصةً ضد عدوّ متفوّق، تغدو عاملاً أساسياً في جذب المتطوعين الجدد. ففي الأراضي الفلسطينية في الضفة الغربية وغزّة، بدأت طريقة العمليات الانتحارية مع الجماعات الإسلامية، حماس والجهاد الإسلامي. وفي ربيع العام 2002، وبغياب أية عملية سياسية واعدة تخفّف اليأس العام الناجم عن الشروط التي يفرضها الاحتلال، وجدت الجماعات العلمانية أنَّ من الصعب عليها أن تنافس الجماعات الإسلامية في تجنيدها للأعضاء. وهكذا، راحت تباريها في استخدام الطريقة الانتحارية، حيث عمدت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وكتائب شهداء الأقصى ـ كلتاهما منظمتان علمانيتان ـ استخدام هذه الطريقة، بل راحت ترسل انتحاريات من النساء، وهي ممارسة أبت الجماعات الإسلامية أن تقبلها. وهكذا غدت العمليات الانتحارية علمانية.

ومن الضروري أن نفهم أنَّ العمليات الانتحارية، على الرغم من شناعتها وتعريضها للخطر تلك المجتمعات ذاتها التي تشرّعها، هي أيضاً عمليات تلهم الكثيرين. فالرعب الحقيقي الذي تنطوي عليه العمليات الانتحارية يكمن في أنها تمنح قوة هائلة لكثير من البشر الذين فقدوا القناعة بأنَّ من الممكن لحكوماتهم أن تفعل أي شيء لوقف إذلالهم وتحسين أوضاعهم. وحقيقة أنَّ مزيداً من الجماعات، بما فيها العلمانية، راحت تستخدم هذه الاستراتيجية هي نتيجة ،وليست سبباً، للدعم الشعبي الذي تلاقيه هذه الطريقة التي كانت الجماعات الإسلامية أوّل من اعتنقها.

وهذه الرسالة المنطوية على منح شعور بالقوة هي رسالة تفهمها جيداً تلك المنظمات التي تستخدم العمليات الانتحارية. وحين تركت انتحارية فلسطينية مراهقة رسالة مسجَّلة في آذار 2002 تتحدث فيها عن "الجيوش العربية النائمة" والحكومات العاجزة التي تترك للفتيات أن ينزلن إلى ساحات القتال، كان من يقفون وراءها يعلمون جيداً كيف سيفعل هذا التسجيل فعله بين الجماهير. فالنفسية الأشدّ انتشاراً في العالم العربي هذه الأيام هي الغضب الجماعي ومشاعر العجز، وبؤرة هذه النفسية هي تلك المجزرة المتواصلة الناجمة عن الصراع العربي الإسرائيلي.

هذا هو الجوّ الذي تتجذّر فيه العمليات الانتحارية، ذلك أنها تحرّر اليائس من الحاجة إلى الاتّكال على الحكومات. وبدلاً من أن يكون هذا الشكل من العنف مرعيّاً من قبل الحكومات،

فإنَّه يتحدّاها. ومهما تكن أهداف الهجمات على الولايات المتحدة، فإنَّها أفلحت في إرسال رسائل تمنح شعوراً بالقوة أولئك الذين في الشرق الأوسط ممّن يشعرون بالإحباط ويبدون كما لو أنهم قد استسلموا لمصيرهم نظراً لقوّة أعدائهم الفائقة وعجزهم الواضح. ومع أنَّ هنالك كثيرين في تلك المنطقة، خاصة بين الحكومات والنخب، ممن يرون أن بن لادن والظاهرة التي يمثّلها يشكّلان خطراً وتهديداً، إلاّ أنَّ كثيراً من العامّة قد ألهمهم ما تحقّق: قلّةٌ قليلةٌ من الرجال لا يحملون شيئاً سوى فتّاحات العلب تُفلح في إنزال مثل هذه الضربة الأليمة بالقوة العظمى الوحيدة الباقية وفي هزّ النظام الدولي. وبفعلهم ذلك، كان هؤلاء مصممين أيضاً على إحداث تغيير في الشرق الأوسط، وإن بقيت طبيعة ذلك التغيير غامضةً لا يُوقف لها على حال. وحتى لو هزمت القاعدة ذاتها في النهاية، فإنَّ من الممكن لآخرين أن يقلّدوا طرائقها ويتشبّهوا بها.

وينبغي أن يكون واضحاً، في النهاية، أنَّ قضايا العنف السياسي عموماً والإرهاب بوجه خاص لا تتعلّق بالدين والعقيدة الدينية. غير أننا لا يمكن أن ننكر أنَّ قدراً كبيراً من الفعل السياسي المقاتل اليوم تتولاّه جماعات إسلامية باسم الإسلام وأنَّ هذه الجماعات في صعود، وإن كانت هنالك جماعات ليست دينية لا تزال أيضاً تستخدم الوسائل العنيفة. والسؤال هو لماذا؟ والجواب واضح لا يكاد أن يكون فيه شيء من الغموض: في غياب الديمقراطية والوسائل الشرعية لتنظيم المعارضة السياسية، يتحول

البشر إلى المنظمات الاجتماعية التي لا تقع تماماً تحت السيطرة الحكومية، والجامع هو واحدٌ من الوسائل القليلة المتاحة لتعبئة الجماهير سياسياً. وهذا الأمر يلقي الضوء على معضلة أساسية في الجهد الرامي إلى الحدّ من الإرهاب: فمن جهة أولى، تدع السلطات المركزية الواهنة للمنظمات المقاتلة أن تتكاثر وتنتشر وتكون أقلّ استجابة للردع؛ ومن جهة أخرى، يدفع القمع الزائد الأفراد والجماعات مزيداً من الدفع صوب استخدام العنف وتحمّل المزيد من المخاطر. فالقمع وحده لا يزيل الإرهاب وقد يساعد على تناميه وتصاعده. وهذا ما تشير إليه تجارب دول كثيرة في الشرق الأوسط، خاصةً إسرائيل في احتلالها الضفة الغربية وغزّة. وهكذا يكون على أيّة استراتيجية ناجحة في مناهضة الإرهاب أن تتعامل مع كلٍّ من الفرص المتاحة أمام المقاتلين ومستوى تحريضهم على القيام بأعمال إرهابية.

فإلى جانب الحدّ من الفرص المتاحة للمنظّمين، على أيّة استراتيجية ناجعة أن تشتمل أيضاً على مقوّمين أساسيين آخرين:

(1) العمل مع المجتمع الدولي، خاصةً عبر المعاهدات الدولية، بغية نزع الشرعية عن الهجمات على المدنيين بوصفها وسيلة سياسية وعن الهجمات الانتحارية بوصفها ذلك الشيء الذي يُحتفى به.

و(2) التعامل مع الجانب المتعلّق بالطلب، ذلك الغضب المشروع واليأس السياسي الفعلي في الشرق الأوسط اليوم، مما يوفّر أرضية خصبة يستغلّها الإرهابيون.

وكما في تسعينيات القرن العشرين، حين عملت الولايات المتحدة مع اللاعبين في المنطقة لإطلاق عملية صادقة ترمي إلى حلّ الصراعات هناك عبر المفاوضات، وقدّمت أفكاراً بخصوص النمو الاقتصادي والتغيير السياسي، فإنَّ سيرورةً جديدة تزرع الأمل ينبغي أن تكون جزءاً من أيّة استراتيجية جديدة. فما لم نتعامل مع جذور هذا الغضب واليأس، فسوف يمكن لإرهابيين جدد أفادوا من هذا القنوط أن يحلّوا محلَّ الإرهابيين الذين نقوم بتصفيتهم وتحطيمهم.

ثمّة لدى شعوب الشرق الأوسط أسباب عميقة، تتعلّق بكلّ من قضايا السياسة الداخلية والخارجية، وخاصةً الصراع العربي الإسرائيلي، تدفعهم لأن يعارضوا الوضع القائم. فاليأس والإذلال يعمّان المنطقة. والبشر يلتفتون إلى المنظمات السياسية المتاحة، باقتناعٍ حيناً، وبصورة غريزية حيناً آخر. وهذا اليأس هو ما يمثّل جانب الطلب في الإرهاب: حيث يمكن للإرهابيين الذين لديهم أهدافهم الخاصة، بما في ذلك الطموح الشخصي أو الطمع، أن يستغلّوا هذا المزاج لتجنيد الأعضاء، والحصول على الدعم المالي، والإيحاء للجمهور المستسلم لأوضاعه بأنَّ التغيير ممكن. ولذلك من المهمّ أن نفهم القضايا التي تقع في القلب من ذلك الإحساس العميق بالذلّ في أرجاء واسعة من المنطقة وأن ندرك لماذا يُوجَّه قَدْرٌ كبير من الغضب ضد الولايات المتحدة بوجهٍ خاص. ومن المهمّ أيضاً أن نتساءل: ما الذي يدفعنا لأن نهتمّ؟ ما هو رهان الولايات المتحدة في

الشرق الأوسط اليوم؟ وهذه القضايا هي الموضوعات التي تتناولها الفصول التالية.

obeikandl.com